النمو الروحي المتسق

سبيل الانسانية الى السوبرمان

تلخيص فصل عن الفيلسوف اوسبنسكي

بقلم يوسف حنا

لم يقتنع الفكر البشري يوماً ما بأن هذا الانسان في حالته وفي شكله الحاضر هو نهاية ما وصل اليه الخلق من الاتقان والابداع وفكرة السبرمان تشغل الانسان منذ ان وجد له عقل يدرك ويفكر، بل أن اساطير القدماء ، الدينية منها والتاريخية ، تتحدث كلها عن هذه الفكرة: وان اختلفت أوجه الحديث ، وليس ابطالنا الا صوراً تتباين في اشكالها الظاهرة وتتفق كلها في حقيقة مدلولها من الاشارة الى السبرمان ؟

وعلى هذا لم يكن مذهب نيتشه شيئاً جديداً ولو أنه ظهر للناس كذلك

وتصوُّر الانسان لفكرة السبرمان في أول ما تصوَّرها ، كانت شيئاً يتصل بالماضي ، فالناس كانوا مولعين بالتحدث عن عصور الماضي الذهبية وما ظهر فيها من اناس متفوقين على البشر يحاربون الشر وينصرون العدل ويقومون وسائط بين الآلهة والناس

ثم تطوَّر الانسان في أنماط تفكيره وأصبحت صور الماضي لا تكفيه فشرع يتصور المستقبل زمن مجيء السوبرمان ثانية .ومن هنا نشأت صورة جديدة للسوبرمان فبات الناس ينتظرونه لينظم شؤونهم ويحكمهم ويعلمهم طاعة القانون ويهديهم الى نواميس جديدة وتعاليم جديدة ومعارف جديدة وحقيقة جديدة ورؤيا جديدة . باتوا ينتظرونه ليخلصهم من أنفسهم وليحررهم من قوى الشرّ التي تحيط بهم . ان كلّ الديانات تقريباً تشتمل على فكرة انتظار السوبرمان أو النبي أو المسيح

وفكرة السبرمان في هذا العصر العلمي ، مسألة تتعلق بمذهب التطور ، بل هي ثمرة من ثمرات التطور في زعمهم ، ولكن القائلين بهذا الرأي ينسون أن التطور لا يعني شيئاً حاسماً أبداً، فالارتقاء فيه والانحطاط شيئان يتداخلان في بعضهما البعض اكبر التداخل، وكثيراً ما يعجز المرء عن أن يميز في تلك العملية من التطور ما الارتقاء فيها وما النكوص ، وانما الشيء الوحيد الحاسم فيها هو أن التطور في الحياة معناه عملية دائمة من التغيير والتبديل. وكل الاحياء التي نعرفها هي نتيجة للتطور أو للانحطاط

الانسان يتغير ويتبدل ، ولكن هل هو يرتقي ام ينحط ؟ هذا ما يصعب الجواب عليه وفضلاً عما ذكر ، فنظرية التطور شيء يتصل بتركيب الاحياء البيولوجي ولكنه لا يعني بالاجتماع والعادات والشرائع وما الى ذلك — مع ان التطور صوب السيرمان معناه خلق أشكال جديدة من التفكير والشعور وترك أشكال الماضي منها

أما مصدر الخطأ في صور السوبرمان المختلفة فحسبانا الانسان أكمل خلقاً مما هو حقيقة والواقع ان الانسان شكل غير تام الصنع ، وعملية انمائه هي عملية دائمة ، فهو يختلف في يومه عن أمس وعن غده وما بعده ، ونفس الانسان الداخلية تعاني تغيرات أقوى من تلك وأشد تعقيداً وتركيباً

والمرء عالم مستقل بذاته ، تجري فيه عمليات مستمرة من الولادة والموت ، ومن تسلط القوي على الضعيف ، ومن الارتقاء والانحطاط ، ومن النماء والموات وأنت تجد في هذا العالم (الانسان) شيئاً من كل شيء من معادن الارض الى الله ...

ففي روح الانسان وثبات من روح الله يندفع بها الى عوالم التخيل والشعور البعيد عن قيود الزمان والمكان — ومن هذا التباين ما بين عالم الانسان الجسدي والآخر الروحي نشأت فكرة الثنية في الانسان ، الواحد يتصل بعالم المادن والحيوان والزمان والمكان ، والآخر يعلو الى العالم الآخر المحجوب عن الانظار

وفي الانسان مخلوقان ، الواحد يتصل بالماضي ، والآخر يتصل بالمستقبل ، وكلا ذينك المخلوقين في نضال دائم ، والمرء لا يعلو ولا يتعدى الحق ، حين يقرر ان الروح الانسانية هي احتراب مستمر بين الماضي وبين المستقبل

وانظر ما يقوله نيتشه عن لسان « زرادشترا » : —

« أنا من اليوم وما قبله ، ولكن يوجد فيَّ شيء من الغد وما بعده من المستقبل »

« وزارادشترا » لا يتكلم هنا عن الاحتراب بين الماضي والحاضر وانما هو يتكلم عن الوحدة التي ينطوي تحتها اليوم وما قبله ، والغد وما بعده ، وهذه الوحدة لا تتيسر إلا اذا انتفت أسباب الاحتراب والتناقض والثنية في الانسان ، أعني إلاّ اذا قهر الانسان تلك الاسباب وجعل حياته وحدة متساوقة بين الماضي والمستقبل وبين العالم الخارجي والآخر الداخلي الذي فيه

وفكرة السيرمان تقسم الفكر البشري اليوم الى قسمين يتباينان أشد التباين — أتباع القسم الاول يعتبرون الانسان مخلوقاً كاملاً ، يدرسون كيانه الجسماني والسيكولوجي ، وتاريخهُ ، وحضاراته ويعالجون كل ما يمكن أن يدخل عليه من اصلاح وتحسين ، بحثين في هذا كله بنتائج مساعي الانسان ومكتشفاته ومخترعاته ، ثم يعتبرون هذه النتائج أدلة على

تطور الانسان ، أعني على ارتقائه ، مع أنهُ كثيراً ما تكون تلك النتائج عينها دليلاً على عكس ذلك ، وفكرة ذلك الارتقاء الذي يزعمونه يشمل في نظرهم النوع الانساني بأكمله

أما أتباع القسم الثاني فيعتبرون الانسان شيئاً غير تام الصنع وانما هو في طور التكيف والصقل ، وان هذا الشيء يجب أن يخرج منهُ شيء يختلف عنهُ ، وعلى هذا فمعنى وجود الانسان الحالي هو في سعيه المتواصل للانتقال الى الحالة المنتظرة

وفكرة هذا الانتقال هي فكرة غامضة فالنظر الى الانسان من حيث السوبرمان الذي سوف يصيرهُ تستند الى الصوفية والكهانة وما اليهما ولكنها لا أثر لها في التفكير العلمي ولا في فلسفات الحياة والآراء الواسعة التي يزعم لها العلم الذيوع في هذا العصر

والسبب في انفصال فكرة السبرمان عن الفكرة العلمية العصرية يرجع في اعتقادي الى انبتات الصلة بين الذهن الغربي والتفكير الديني ، ولو ان للغرب طابعاً من التفكير الديني ، لاستطاع أن يساعده على قبول فكرة السبرمان ، لأن الفكر الديني لاينفصل في صميم معناه عن فكرة السبرمان، ولولا هذا الاضطراب في أنماط تفكير العصر، لاستطاع فلاسفة العصر أن يدركوا فكرة السبرمان على خير وجوهها ، وأن يفهموا ان الانسان الحاليّ عابر سبيل سوف يمر ويأتي غيره أسمى منه

ولكن فكرة كهذه لايمكن أن تكون فكرة رائجة ، ذلك ان معظم فلسفات العصر تقوم على أساس علم الاجتماع ، أو ما يزعمون له انهُ علم ، وهذا العلم لايقوى على أكثر من اعتبار الحاضر أو المستقبل القريب ، ولكنه يعجز عن التغلغل الى خفايا المستقبل البعيد وما قد تنطوي عليهِ ثناياه من اشكال انسانية جديدة

هذا العلم يعتبر الانسان المتوسط فقط ، بينما ان الفرد في الانسان ، والمجموع فيه ، يشبه سلسلة من الجبال ، فيها القمم ، وفيها القدم والاودية ، وتلك السلسلة فوق كل اعتبار آخر ، ماتزال في طور التكوين . تنخسف الجبالُ وتنحسر المياهُ فتحلُّ الصحاري محلّ البحار ، وتثور البراكين فتغطي اودية المروج والحقول

فالانسان المتوسط لاوجود له في الواقع ، كما انهُ لايوجد ارتفاع جبلي متوسط . بل ثمة أفراد مختلفون وقمم متباينة الارتفاع . وعلى ذلك فليس من السهل أن نعين الزمن الذي يظهر فيهِ شكل ثابت من أشكال الانسان ، لأن هذه الاشكال هي في عملية مستمرة من التكون ، وحركة النمو فيها لاتقف أبداً ، وظهور الاشكال الجديدة من الناس عملية هي الاخرى مستمرة لا تهدأ

والسبرمان لا يتعلق بالمستقبل ، واذا أمكن للسبرمان أن يوجد في العالم فيجب أن

يوجد في الماضي وفي الحاضر ، ولكنهُ لايستمر ، هو يظهر الى حين ثم يختفي — وكما أن حبة الحنطة حين تزرع وتنمو تنفصل عن عالم الحبوب ، فليس يعود يدركها ذلك العالم ولا يلحظها في عالم نموها هي ، فكذلك السبرمان يظهر بيننا ولكننا لاندركه ولا نلحظهُ لانهُ ليس منا ، والانسان العادي لايمكنهُ أن يدرك السبرمان ولا أن يعرفهُ اذا وُجد بينهُ ، وهذه حقيقة تمنعنا كبرياؤنا عن أن نعترف بها

ونقطة العجز في فهم فكرة السبرمان عند الناس هي في أنهم إما يعتبرون الحياة بدون غاية أو انهم يرون ان تلك الغاية هي في تطور المجموع وفكرة تطور الجمهور سخيفة ! فكأنك تطلب أن تتطور جميع خلايا الشجرة ويصبح كل ما في الشجرة زهواً ونمواً

ان الطبيعة لم تتعهد للانسان بان تكافئهُ باخراجه من سجن الانسانية الى فسحة السبرمان جزاء لهُ على طول خدمته ، او شدة آلامه أو حسن سيرته . وانما طريق هذا الخروج هو في فهم فكرة السوبرمان وهذا الفهم أصبح نادراً الآن

خذ مثلاً خلط الناس في فهم السبرمان ، تلك الاشكال التي كانوا يتصورونها عنهُ في الماضي — فهم كانوا يتصورون السبرمان في أشكال ضخمة غير عادية ، مع أن هذا خطأ ، ان طول القامة ، أو ضخامة اليدين ، وطول العمر ، كل هذه الصفات وأمثالها لا توزن بشيء في تكوين السبرمان . فالانسان مهما طالت قامتهُ فهي لا تعلو عن النخلة ... وأصغر آلة أقوى من اضخم يد ... ومن الحيوانات والنباتات ما تعيش مئات السنين ... فهل في مثل هذه الصفات ما يعدُّ بحق من ميزات السبرمان ؟

ان صفات السبرمان هي تلك التي يستقلّ بها الانسان وحده ، لايشاركه فيها آخر من الاحياء الاخرى — وتاج تلك الصفات هو نماء عالم الانسان الداخلي ، اعني نماء الشعور أو الوعي Consciousness

***

تطوّر وعي الانسان ، وهو ما لا يشاركه فيه اي مخلوق آخر ، هو الصدد الذي ينتهي بالناس الى مرتبة السبرمان

وبديهي أنهُ ليس من المستطاع تقرير قاعدة ثابتة لتطور السبرمان العقلي والعاطفي ، ولكن في الامكان تبين بعض نواحي ذلك التطور تبيناً واضحاً

ان اول ما يجب أن نقولهُ عن فكرة السبرمان هو انها فكرة لا تفهم في عالم الماديات وانما هي فكرة غامضة تتصل بشيء خفيّ ويمت بسبب الى السحر

والسبرمان لا يمكن أن يكون رجلَ اعمال عظيماً او فاتحاً عظيماً او مخترعاً عظيماً ، او

عالماً عظيماً ، وانما هو اما أن يكون قديساً أو ساحراً ... والروس في خرافاتهم يسندون الى جميع ابطالهم صفات الحكمة السحرية ا ذلك أن فكرة السبرمان تتصل أقوى الاتصال بفكرة المعرفة المجهولة، وانتظار السبرمان هو في الواقع انتظار وحي جديد أو معرفة جديدة مجهولة

***

ولكن فكرة السبرمان عند الناس في هذا العصر الاخير تتصل أكبر الاتصال بفكرة التطور البيولوجي ، اعني بفكرة تطور الانسان كنوع ، والغريب أن هذا الرأي يهدم فكرة السبرمان من الاساس ، أما اولا فلخطأ فكرة تطور النوع وارتقائه ، وأما ثانياً فلان السبرمان بموجب هذا الرأي من التطور ، ينطوي على فكرة من النظام والقانون ، اعني فكرة انتهاء عملية التطور النظامية الى نتيجة نظامية هي الاخرى، وهي ظهور السبرمان بينما أن جوهر السبرمان هو هذا الشيء الذي فيه بما لا يتفق مع نظام ولا مع قانون ، وانما هو شيء جريء مقتحم لا يعرف نظاماً ولا قانوناً

وقد أشار نيتشه الى هذا بقوله على لسان « زارادسترا » : —

« انا اريد أن اعلم الناس معنى وجودهم ، ذلك الذي هو السبرمان — هو ابراق تلك الغيوم القاتمة »

يفهم من هذا أن نيتشه لم يكن يفهم السبرمان على أنهُ نتيجة تطور بيولوجي ، والصور في مظاهر جلية ، فالبرق ليس تطوراً للغيوم القاتمة ...

وتلك الصفة من الخروج على النظام والقانون جعل الناس يتصوّرون السبرمان كسيّارة تندفع بسرعة بين الناس فتصدمهم في كل الجهات ، واصبحت فكرة السبرمان تمثل القوة والبغض والأثرة وما الى ذلك ، وصار اسم نيتشه قرين ذلك القانون الاخلاقي القاسي ، ولكن ليس الذنب في ذلك لنيتشه ، بل الحق أنهُ لم يوجد من قرن فلسفة السبرمان بمبدأ خلقي صحيح من الحبّ مثل نيتشه

ان كل ما فعلهُ نيتشه هو أنهُ قال بهدم قوانين الماضي الاخلاقية التي أصبحت غير اخلاقية اليوم ... وثار على تلك الاثواب « الجاهزة » من الاخلاق التي تعتبر واجبات مفروضة على كل الناس على السواء نظرياً ، ولكنها اثواب تمزق كل يوم بايدي الناس عملياً ....

والناس يعتبرون تلك القوة في فكرة نيتشه للسبرمان كاساس لتعاليمه في معاملة الناس بعضهم لبعض ، وهذا خطأ في فهم نيتشه

ان نيتشه يحث الانسان على القوة في معاملة كل منزع ضعيف من منازع النفس الداخلية هو يريد قوماً قوية خالية من الضعف والفساد ، وهذه لا يرجى لها وجوداً الا

من طريق قسوة الانسان في كبت منازعه البشرية ، فما شأن معاملة الناس بعضهم لبعض بالقسوة المرهقة ؟ واصغ الى ما يقوله « زاراتسترا » : —

لما نزل « زاراتسترا » من الجبل لم يقابل احداً في الطريق ، فلما دخل الغابة انتصب امامه فجأة رجل عجوز وخاطبه بقوله : —

ليس هذا الرجل المتجول بالرجل الغريب عني — لقد مرَّ عليَّ منذ سنوات كثيرة مضت — وكان اسمهُ زاراتسترا ، وهو قد تغير الآن

انك تحمل رمادك الى الجبال ، فهلا تحمل نارك الى الوديان ؟ وهلا تخشى حكم المحرقة ؟

اجل اني أعرف زاراتستر ذا العينين الزرقاوين ...

فاجابهُ زاراتستر : —

اني انا احبُّ الناس . . . .

والناس بعد كل هذا أساءوا فهمَ نيتشه ونسبوا اليه روح القسوة والحرية التي سادت المانيا ، فما علة هذا الخلط في فهم نيتشه ؟

علة ذلك أن نيتشه نفسهُ اساء فهم حقيقة المسيحية ، لانهُ درسها على رينان الذي اعتبرها دين الضعف والخور ، ثم ثار عليها جاهلاً في ذلك انهُ يثور على أجمل مظهر من مظاهر فكرة السبرمان في العالم كله

ان ميزة السبرمان البارزة هي القوة ، وفكرة القوة تقترن عادة في ذهن الناس بفكرة تلك « الروح الشريرة الخفية المائلة الى القسوة » ، وهؤلاء الناس لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا حقيقة معنى القسوة المتعلقة بفكرة السبرمان

وفكرة الشرّ في ذهن الناس هي لون من الوان آرائهم الملوطة ، وهذه الآراء تلبس أشكال ما تنطوي عليه تلك الاذهان البليدة من خيالات ورموز كاذبة ، ففي أذهان الناس مسيح كاذب ، وعلم كاذب ، ودين كاذب ، وغير ذلك ، لان سوء الفهم عند الناس قمين بخلق شيء كاذب من كل شيء آخر صحيح

وعلى هذا القياس شاء الناس أن يقرنوا فكرة السبرمان بسجايا القسوة والبغض فاذا بحثنا هذه التهمة بحثاً علميًّا صحيحاً وجدناها تهمة كاذبة

وحتى نستطيع أن نفهم فكرة السبرمان حقّ الفهم ، يجب أن نبحث في مبدأ الامر تلك الصفات الانسانية التي لا تلائم وما تتطلب عملية السبرمان من صفات وسجايا

ان الدور الذي لعبهُ بيلاطس البنطي في تاريخ السيد المسيح يمثل لنا نموذج الانسان المنطوي على السجايا المتنافرة اشد التنافر وما يتطلبهُ صنع السبرمان من صفات

كان بيلاطس يفهم السيد المسيح بعقل روماني ويرى انه كان فيلسوفاً سليم التفكير لا يستحق الموت ، ولكن الحاح اليهود في صلبه جعل موقف بيلاطس ما بين المؤثرات الخارجية ومنازع نفسه الداخلية موقفاً حرجاً حقاً

اشتدّ التضال والاحتراب ما بين نزوع قوة نفس بيلاطس الداخلية الى الحقيقة ، وبين المؤثرات الاخرى الخارجية التي تميل بالنفس الى انكار الحقيقة ، ثم انتهى ذلك الى خضوع بيلاطس واستسلامه لقوة المؤثرات الخارجية

هو سخر بالحقيقة وتهكم عليها بجعله إياها شيئاً نسبيًا ، ثم غسل يديه بالماء وقال « اني بريء من دم ذلك البار » . وما أكثر ما يلجأ الناس الى التخدير والى الرموز كلما نزعت نفوسهم الى الحقيقة ثم جبنوا عن السير معها الى نهاية الشوط

امثال بيلاطس كثيرون بين الناس ، وسجايا هؤلاء الناس هي أكبر عثرة في سبيل العرفان ، ان اتجاه الحقّ ، والتطور الصحيح نحو العرفان هو في التساوق التام في نماء العقل والشعور والارادة نماء متسقاً حقاً

وشخصية أخرى في تاريخ السيد المسيح تمثل ناحية أخرى من نواحي صفات الناس المتعاكسة مع تطور العرفان — تلك الشخصية هي يهوذا الاسخريوطي . فانهُ لم يفهم حكمة السيد المسيح ولم يقدر على فتح عينيه في نور تلك التعاليم السامية فسعى الى قتل صاحبها

نجد في تينك الشخصيتين احترابًا ما بين مؤثرات خارجية وبين منازع داخلية ، ونجد ان احتراب بيلاطس يقوم على العلم والمعرفة ، واحتراب يهوذا يقوم على الجهل والغباء ، ولكن نهاية احتراب العوامل في الشخصيتين كانت نهاية واحدة ، فكلا الرجلين لم يسع لايجاد وحدة من الائتلاف والتساوق ما بين المؤثرات الخارجية والاخرى الداخلية ، وانما كلاهما سلم وخضع

ان جوهر معنى تطور الانسان وارتقائه هو في تلك الوحدة الداخلية ، وما لم يفز المرء بها لا يمكنهُ أن يحصل على « أنا » أعني على الارادة

ومعظم أعمال الناس تثيرها عوامل اضطرارية لا اختيار للناس فيها ، فالمرء ينقاد لكل عامل خارجي يؤثر عليه حتى اذا ذهبت قوة ذلك العامل أو نافستها قوى عوامل أخرى أشد منها ، انقاد الانسان الى هذه المؤثرات الجديدة وهكذا دواليك ، وعلى ذلك فحياة الناس سلسلة من التغير والتبديل المتعارضة لا وحدة فيها ولا ائتلاف و « أنا » في الانسان أو هي الارادة ، تلبس مختلف الاشكال والالوان بدون انقطاع ، ومن هنا كانت الارادة في الانسان لا يمكن أن تعرف بأكثر من أنها نتيجة الميول المتعارضة